

الحوار مع الآخر ضرورة شرعية وحضارية في الفكر الإسلامي

اعداد

استاذ مشارك د. حسن حميد عبيد الغرباوي

جامعة عدن / كلية التربية – عدن

قسم الدراسات الاسلامية



المقدمة :

الحمد لله و الصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد :
في ظل التطورات والتحديات الهائلة الراهنة ، المطروحة بإلحاح على العالمين العربي والإسلامي . يبدو الحديث حول القضايا الهامة التي تشغل الفكر الإسلامي المعاصر ، والآمال الكبرى التي يحتضنها في مفاهيمه وخطاباته وقضاياها من موجبات المرحلة وضرورات العصر الراهن . وذلك لكي تساهم المضامين الفكرية والمعرفية والثقافية الإسلامية في توجيه حركة الواقع وصولاً إلى المشاركة في صياغة مستقبل الأمة والوطن والإنسانية .

والفكر كالكائن الحي يتطور مع الزمن ، واستجابته الفعالة للتحديات والتطورات ، تعني تكثيف مرحلة التطور والتحول الفكري ، بما يستجيب لأسئلة الواقع وتحدياته . ولأن فكراً لا يتواصل مع نبضات واقعه . ويستجيب لمتطلباته ، ويتناغم وحقائق الكون والتاريخ ، فإن مآله الانزواء والتخلف عن ركب الحضارة والعصر .

ففي مناخات التواصل مع العصر ، يستطيع الفكر الإسلامي المعاصر ، أن يدرك قيمة هذا التواصل . كونه عملية فكرية اجتماعية إنسانية ، يتواصل فيها الأمس واليوم والغد في حوار وتفاعل مستمر .

والذي يدرك سنة التدافع والصراع ، وأطرافه وميادينه ، وأسلحته ، ومساراته ، يصبح قادراً على حسن تسخير ، والفقه بنتائجه ، ويمتلك القدرة على المداخلة والمحاورة والمناظرة ، والتحكم ، ومغالبة سنة بسنة ، أو قدر بقدر ، ويمتلك القدرة على الحركة في كل الظروف وإيجاد مساحات لزرع الحقيقة وتميئتها .

وقضية الحوار مع الآخر ، وإعادة النظر بمواصفات الخطاب الإسلامي المعاصر ، وأدوات تأصيله ، ووسائل إبلاغه على مختلف الأصعدة ، لم تعد خياراً للمسلم ، في عصر ثورة المعلومات والاتصالات ، وتطور وسائل الإعلام حتى يكاد العالم يصبح قرية إعلامية صغيرة .

فكيف نحاور الثقافات والحضارات إذن بدون أن نعيد قراءة خطابنا الإسلامي، ونتحاور فيما بيننا مهما اختلفنا في الفروع.. وهذا البحث الماعية بسيطة على هذا النهج القويم في عالم متغير متحول، يموج من حولنا يوميا بالافكار والاكتشافات والتحديات وثورة الاتصالات.

اولا :الحوار : الواقع والمنهج :

عندما نتحدث عن الحوار فإننا نفتح على مفهوم يحرك التواصل الإنساني. ويمثل نقل كل عناصر الفكر الإنساني بكل خصائصه الثقافية والشعورية للإنسان الآخر الذي يقوم بالدور نفسه بالنسبة لهذا الشخص. من هنا فان معنى الحوار هو أن يكون الإنسان اجتماعيا ، واللا حوار يعني موت الحركية

الإنسانية بالنسبة للآخر ، أي يعيش كل إنسان معزولاً عن الإنسان الآخر . فان الحوار كان أساسياً في الفكر الديني والإسلامي بالذات .

ومن المفيد هنا، أن نشير إلى أن الصراع، أو التدافع، أو التداول، أو الحوار الحضاري، سنة اجتماعية، من سنن الله تعالى وقوانينه التي لا تتخلف ولا تتبدل، كما أنها سنه فردية أيضاً فالإنسان كفرد. ليس خارجاً عن دائرة الصراع والتدافع الذاتي، في الاختيار بين دوافع الخير، ونوازع الشر في نفسه، لأن في ذلك تتحدد حرية الإنسان في الاختيار، وتتميز كرامته، ويبين فضله، والشر من لوازم الخير، وبضدها تتميز الأشياء.

فالصراع والتدافع ، هو سبيل الحيوية ، والنمو والازدياد ، وعلامة الحياة والاستمرار ، ابتداءً من الخلية ، وانتهاءً بالحياة الحية .. وهو إحدى محركات الحياة الاجتماعية ، وامتداد التاريخ البشري ، وله صورته المتعددة ، من الحوار والمفكرة والمثاقفة ، والمناظرة ، والقتال ، والمواجهة ، والمنافسة ، والسباق ، والمغالبة ، كلها صور ومعارك منها : المشروع المحكوم بضوابط ليست من وضع الإنسان ، ومنها ما يستخدم وسائل غير مشروعة ، وكل ذلك يقع ضمن دائرة الصراع الحضاري ، الذي يندفع من عقائد وأنساق معرفية ، ورؤى قيمية ، وأنماط حياتية وسلوكية تمتاز بخصوصيتها ، وتسعى للبرهنة على أحقيتها وإثبات وجودها .

والصراع بين الخير والشر ، والعدل والظلم ، والحب والحقد ، والعفو والثأر ، والإيثار والأثرة ، والحق والباطل ، وبعبارة أخرى: الصراع بين المعروف والمنكر ، لا يتوقف إلا بتوقف الحياة.. إنها ابتلاءات الحياة (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم في ما آتاكم) . المائدة / ٤٨ . وقال تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) هود/ ١١٨-١١٩ . وقال تعالى (ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلوكم ببعضكم ببعض) محمد/ ٤ .

ولعل من مظاهر رحمة الله تعالى ، هذا التدافع والاختلاف ، الذي من خلاله يتحصص الحق ، ويتمحص ، وبسببه تتجو الحقيقة من الدمار ، والخير من الجفاف ، قال تعالى (ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً) . الحج/ ٤٠ . وقال تعالى (ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) . البقرة / ٢٥١ وقال تعالى (كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) الرعد/ ١٧ .

فالاختلاف بين أفراد البشر أمر طبيعي بل أنه آية من آيات الله تعالى في الخلق: (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم) الروم/ ٢٢ . والاختلاف داخل ضمن قسمة رحمة الله بين عباده في الدنيا للابتلاء والاختبار (أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم

معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) الزخرف/٣٢ . وقال تعالى (ولا يزالون مختلفين) هود/١١٨ . وقوله تعالى (وجعلنا بعضهم لبعض فتنة أتصبرون) الفرقان/٢٠ .
(١)

ولذلك فإن من أخطر ميادين التدافع الحضاري ، وإن شئت فقل : الحوار الحضاري ، وما الحوار إلا صورة من صورة التدافع – مشكلة تحديد المفاهيم والمصطلحات والمفردات المعرفية ، التي تعبر عن الثوابت الحضارية والمرجعية الثقافية ، أو ما يمكن أن نعبر عنه بعالم الأفكار والعقائد ، هي وسائل التحصين ، وأسلحة التدافع ، وأدوات الحوار الحضاري . لذلك فإن الغفلة عن مدلول المفاهيم الشائعة يعتبر من الغفلة عن الأسلحة ، وأول مراحل الوهن والاغتراب ، قال تعالى (واذ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) . النساء/١٠٢ . فلا بد من التبصر والنقح والتدقيق الكامل في فحص واختبار المفاهيم والمصطلحات الإسلامية السائدة ، والتعرف على منطلقاتها ، وأهدافها ، ودلالاتها ، وخلفياتها الثقافية . لأنها تشكل أوعية التفكير وجذوع النسغ الحضاري الممتد من الماضي والحاضر والمستقبل.. ومن هنا فإن الحوار مع الآخر وإتاحة الفرصة لتبادل الرأي ، للوصول إلى قناعات معينة ، أو للوصول إلى صيغ مشتركة ، للتفاهم والتعاون هو مطلب إسلامي . وإحدى وسائل الدعوة والبلاغ المبين ..

والحوار لغة : يعني تبادل الكلام والتجاوب فيه بالمخاطبة والرد . (٢) ومن هذا التعريف اللغوي نستطيع إدراك أن للحوار أركانه ، الأول : وجود طرفين للحوار أو أكثر ، والثاني : وجود قضية تخضع للمناقشة والأخذ والرد فيها . وقد ورد الحوار في القرآن الكريم في ثلاث مواضع وهي :

قوله تعالى (وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً) الكهف/٣٤ وقوله تعالى (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) المجادلة/١ وقوله تعالى (قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً) الكهف/٣٧

ويتضح من هذه المواضع الثلاثة أن الحوار فيها هو تبادل الكلام وتداوله بين الطرفين والأخذ والرد فيه . وقد عبر القرآن عن الحوار أحياناً بالجدال والتي هي أحسن كما في قوله تعالى (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) النحل/١٢٥

وقوله تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون) العنكبوت/٤٦
وقد ورد الجدل من غير إضافة في القرآن الكريم تسعاً وعشرين مرة أغلبها في سياق الدم، وذلك عندما يكون الجدل لإلزام الخصم وليس لإظهار الحق، فالجدل، غالباً يعبر عن شدة الخصومة واللدن فيها مع القدرة عليها ، والتعصب للرأي وإن كان باطلاً .

ولم يقتصر القرآن على الأمر بالمجادلة ، وإنما نص على أسلوبها ، واشترط أن يكون بالتي هي أحسن ، حتى لا يكون منفراً ، وحتى يحقق الاقتناع عن اختيار ، ولا يشكل حاجزاً نفسياً بين الآخر والإسلام ، خاصة وأن الإسلام لا يخص جنساً ، ولا لوناً ، ولا قومياً .

وأحسب أن المبادرة بالحوار، والدعوة إليه، يجب أن تبدأ من عند المسلم، وأن يكون المسلم أكثر حرصاً عليها من الآخر.. ولعلي أرى في قوله تعالى (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) . آل عمران / ٦٤ . تكليفاً شرعياً لا يخص عصراً بعينه، ولا حادثه بعينه، ولا يجوز أن يعتبر سبب النزول قيداً لخلود النص، وتجرده عن حدود الزمان والمكان..

فمقتضى خلود النص يعني : أن التكليف جارٍ وقائم في كل زمان ومكان والدعوة إلى الحوار واللقاء بالآخر ، ومحاجته بالتي هي أحسن ، وظيفية المسلم ، لإلحاق الرحمة بالناس ..

وما يمتلك المسلم من قيم سماوية معصومة منزلة من رب العالمين ، وشخصية حضارية وثقافية ، وتجربة تاريخية فذة ، تجعله في موقع مكين ، يدفعه إلى الإيجابية ، وطلب الحوار ، ويجعل مكاسبه من الحوار مقدرة ابتداءً ، ذلك أن الآخر سوف يتأثر على كل حال ، وليس بالضرورة أن تظهر النتائج بشكل سريع ، فكثير من الصحابة رضي الله عنهم سمع القرآن لأكثر من عشر سنوات ، وكان الحوار بالقرآن ، وكان المحاور الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أوتي جوامع الكلم ، وجاء إيمانهم متأخراً ، ومع ذلك أبلوا في الإسلام بلاءً حسناً ، وانتصر هذا الدين على أيديهم في معارك كثيرة ، فكرية ، أو فقهية ، أو عسكرية . (٣)

ونلاحظ أن الحوار الأول الذي سجله القرآن الكريم كان حوار الله تعالى مع إبليس . فإبليس رفض السجود لأدم لكنه لم يرفض فرصة الحوار مع الله ، وقد عبر عما في نفسه ، وقدم طلبه إلى الله بعد أن رفضه سبحانه وتعالى ، ثم بعد أن قبل طلبه عبر عن خطته (قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم) الاعراف/١٦

فنلاحظ إن الله سبحانه وتعالى أجابه بعد ذلك (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) . الحجر/٤٢

هذا الحوار بين الله سبحانه وتعالى رب الكون وبين إبليس يعطينا فكرة أن المخلوق حتى لو كان

متمرداً فإنه لا يفقد فرصة الحوار مع خالقه، فالله تعالى يعطيه الفرصة ليتحدث عما في نفسه كما يجيبه على ما يحتاج إلى إجابة .

والأمر الثاني الذي نتوصل إليه من هذا ، هو أنه ليس هناك شخص مرفوض في الحوار . فبإمكانك أن تحاور أي إنسان مهما كانت درجة سقوطه الإنساني والديني أو الاجتماعي والسياسي . إن الله سبحانه وتعالى قد حاور إبليس ، فمن هو الذي يتجاوز موقع إبليس في الشر لاسيما أننا نعرف أن الحوار لا يعني الاعتراف بالآخر ، أي باعتباره حالة شرعية ، ولكنه اعتراف بوجود الآخر الذي ينعكس عليه وجودك سلباً أو إيجاباً ، مما يفرض عليك إن تتفهمه ، لتعرف كيف تصون نفسك منه وكيف يمكن أن تتعامل معه لو قدر لك أن تغوص معه في أي درجة من درجات التعاون ، ولكي تمنحه الفرصة في أن يفهمك ، مما يمكنه أن يجذب إليك .

وهكذا نجد أن الله تعالى أعطانا تجربة ثانية وهي حوار الله تعالى مع الملائكة . هنا حوار مع رمز الخير وهناك حوار مع رمز الشر، فالله تعالى عندما أراد أن يجعل في الأرض خليفة أراد أن يضع الملائكة في الصورة مما يدل على أن الله يريد لخلقه القريبين منه أن يعرفوا ما هناك . وربما يعني ذلك أن للملائكة دوراً وظيفياً مما قد توحى به الآثار فجعل تعالى لكل ظاهرة كونية فريق من الملائكة يحركها أو يتدخل في طريق إدارة أوضاعها أو ما إلى ذلك .

فنحن نجد أن الله سبحانه وتعالى أدار الحوار مع الملائكة ، حول هذا الإنسان الذي جعله خليفة ، وترك للملائكة أن يعلقوا على الموضوع فقال تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون) البقرة / ٣٠

ثم ليس من الضروري أن يكون اعتراضاً ، لأنهم (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) ولكن من أجل أن يكون الحوار فرصة للمعرفة لاسيما إذا كان الحوار مع الله الذي يخلق ما يشاء ويختار . وهكذا نجد أن الله سبحانه تقبل تعليقاتهم بخصوص هذا الإنسان .

هذا المخلوق الذي سيجعله خليفة . وهكذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يدخل الإنسان في هذا الجو ، أن يدخل آدم في تجربة مع الملائكة ليتمثل الملائكة أن هذا المخلوق الجديد الذي اعترضوا عليه يملك علماً لا يعلمه الملائكة ، فجعل هذا الإنسان الخليفة الأرضي موضع احترام الملائكة ، لأنه يعلم ما لا يعلمون ، لقد علمه الله تعالى ما لا يعلمون (٤).

وفي هذا المجال لا بد من القول ، بأن التنوع والتعددية لا يعينان الفوضى أو غياب الناظم في عملية التنافس الاجتماعي والحضاري ، وإنما الناظم الذي يضبط حركة التنوع في المجتمع هو ناظم (سيادة القيم) ، التي تشكل المرجعية العليا في المجتمع بأسره ، ولذلك فإن التنوع في حقيقته وجوهره ، هو خلق بيئة ومناخ يدفعان كل مواطن وإنسان إلى المشاركة الفاعلة في بناء الوطن

وتعزيز قدراته المختلفة ، ومنظومة القيم التي تضبط هذه العملية ، هي التي تسبغ الحيوية والفاعلية على أفراد المجتمع ، ولذلك قال تعالى : (قل هذه سبيلي ادعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) يوسف/ ١٠٨ وقال تعالى : (ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) الانعام/ ١٥٣

فالتنوع في حالته الأولية ، يعني وجود حالة من الصلة الحقيقية والتفاعل المثمر بين الأنا والآخر ، وهذه الصلة وهذا التفاعل هو الحياة وهو التطلع الذي ينشده الإنسان السوي ، كما أن التخلف الفكري والحضاري ، وما ينتجه من جمود وحرافية وضيق في الأفق ، هو الأرضية التي تبذر بذور الأحادية في التفكير ، وتحارب الآخر ، وتمنع الحوار والتلاقي وتحول كل حالة تنوع في المجتمع إلى حالة صراعية - قاتلة - ، ومبددة لطاقت المجتمع بدلاً من أن تكون ظاهرة ثراء للبنيان الاجتماعي .

ويمكن القول على المستوى التاريخي ، أن حالة التعدد والتنوع في الدائرة الإسلامية شملت الأبعاد الداخلية والخارجية ، إذ أن جسم الأمة تنتوع بداخله وتتفاعل فيه مجموعة من المدارس الفقهية والفكرية والاجتماعية والأقليات الدينية التي كانت تعيش في كنف الأمة الإسلامية ، إذ أن المجتمع الإسلامي يؤمن بمبدأ الاعتراف باختلاف الشرائع لفئات اجتماعية ، تتعايش مع المسلمين في رقعة جغرافية واحدة .

وجماع القول أن التنوع في إطار الوحدة في مقاربتة النهائية ، يتطابق مع مفاهيم أكد عليها الإسلام واعتبرها جزءاً من منظومته القيمية والفكرية . ويمكن تحديد مفهوم التنوع بشكل أكثر دقة بأنه الجواب الايجابي لحالة الاختلافات الطبيعية التي تعيشها الأمم والشعوب فبدل أن تتحول هذه الاختلافات إلى مداخل لنفي الآخرين ، بالتنوع في إطار الوحدة تتحول جميع هذه الأمور إلى ثروة وإغناء للوجود الاجتماعي والحضاري للمسلمين (٥) . والحال فإن الحوار هو خيار أصيل ، وخيار الفكر الناضج عندما يريد أن يجذب الفكر الآخر ويتقاسم معه الحقيقة بلغة الحوار وليس بلغة العنف كما ادعى ذلك (لفي شتراوس) . ولم يكن العنف إلا مظهراً من مظاهر الفكر الفاقد للمصداقية ومبررات البقاء ، والحوار هو مظهر من مظاهر الفكر الذي يجتهد ويجاهد من أجل إحقاق الحق دون الادعاء بامتلاك ناصية الحقيقة واحتكارها . فالحوار هو أن ندخل مجال الإقناع والتفاهم والتعايش بلغة الفكر ذاته . حوار يبدأ من السلام وينتهي إليه ، وليس الحوار الذي يبدأ من السلام لينتهي إلى الحرب حين فشل هذا الطرف أو ذاك في إحراز الانتصار .

وليس الحوار الذي يبدأ بالحرب وينتهي إلى السلام حين لا يكون أمامه مندوحة للدخول مرغماً إلى مجال الحوار . لنفتتح أولاً بان الحوار أصيل ، وليس شيئاً ثانوياً ، وليس بديلاً يفرضه تعادل البطش والعنف بين الأطراف المتصارعة ... الحوار أولاً وأخيراً .

(والبداية في الحوار هي احترام كل طرف لنظيره وتسليمه الضمني بأن ما لدى الأنا لا يعلو على ما لدى الآخر والعكس صحيح بالقدر نفسه ، فالحوار لا يعرف بين الأعلى والأدنى بل يعرف العلاقة بين الأكفاء . هؤلاء الذين يعرفون أن العقل هو اعدل الأشياء. توزعاً بين الناس كما قيل عن ديكرت الفيلسوف ، وناتج الحوار هو ناتج العقل الجدلي ، تغيير نوعي في الأطراف المتحاوره ، المتقابلة ، المتعارضة ، تغيير يجعل من نقطة النهاية مخالفة لنقطة البداية حتماً ، ذلك لأن فعل الحوار نفسه كفعل الجدل ، يؤلف بين عناصره المتقابلة الواقعة بين أطرافه المتعارضة ويصوغ منها ما يستوعب الأطراف كلها ويتجاوزها في أن ، صانعاً بذلك بداية أخرى لحوار آخر لا يكف عن التحول والتولد)⁽¹⁾

ومن متطلبات العدالة الانفتاح على جميع الاجتهادات الثقافية والفكرية في الأمة لانتخاب أصوبها وأصلحها ، والابتعاد عن الاعتبارات السوداء التي تمنع عملية الانفتاح على الاجتهادات المطروحة في الساحة .

ومن هنا يطرح السؤال نفسه ...من يحاور من ؟

انه في الحقيقة مظهر من مظاهر الحوار مع الذات ... فالمسلم الذي يجد نفسه عاجزاً عن التواصل مع المسلم الآخر ، سيفشل حتماً في إجراء حوار مع الآخر غير المسلم ، فالمسلم الذي يواجه أخاه بالعنف ، ويدعى أنه في مكان يؤهله للتخطي والتصويب ، إنما هو يحجب حقيقة أخرى هي أنه يعيش حرباً في داخله ، حرباً مع قناعاته .

وكلما ازدادت قسوة المحاربين لفكره، فإنه يختزن ذلك إلى حين تقجيريه في الآخر الذي يتقاسم معه الحقيقة.

والرؤية الإسلامية للإنسان (الجنس) هو أكرم مخلوقات الله ، وتكريمه ماثل في كيانه المتميز عن سائر المخلوقات ، بما فطره الله عليه من قابليات وقدرات هيأت له إدراك المؤثرات الكونية ، والانفعال بها ، والاستجابة لها بكل ماركب فيه من حواس ، وعقل ، وطاقت ، تجعله قادراً على التفكير والتأمل والتدبر والتوقع ، واستشراف المستقبل ، والاختيار الحر المسؤول في الفكر وفي العمل ، وفي قدرته على تخطي محددات السياق الزمكاني .

واستناداً إلى تميز الإنسان في تكوينه البدني والعقلي والنفسي فقد استخلفه الله في عمران الأرض ، وجعله سيداً في هذا الكون ، وسخر له الطبيعة وما أودع فيها من قوى وظواهر وطيبات فقال تعالى : (ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنه ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) لقمان / ٢٠

وأفراد الجنس الإنساني متساوون في عبوديتهم لله وحده ، لا تمايز بينهم إلا بالتقوى (إن أكرمكم عند الله اتقاكم أن الله عليم خبير) الحجرات/ ١٣ والمساواة بين الناس لا تنفي اختلافهم في

الأمزجة والطباع وتعدد النمط الاجتماعي للشخصية (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) هود/١١٨-١١٩ . وقوله تعالى : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) المائدة/٤٨ .

وهذا يعني أن الإسلام يقر التنوع الثقافي ويراه وسيلة لإثراء حياة الناس لا لتصارعهم . ويؤكد على أن التنوع الثقافي والألسنة المتعددة نعمة من نعم الله عز وجل قال تعالى (ومن آياته أن خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم) الروم/٢٢٠ ، ودعا القرآن الكريم الناس في الثقافات المختلفة إلى التعارف والتعاقد ، لتأدية الوظائف التي تمكن الإنسان من اعمار الأرض وأداء أمانة الاستخلاف ، والاستمتاع بما أودع الله في الكون من طاقات وإمكانات (يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير) الحجرات/١٣

والتبادل الثقافي والتعارف والحوار الذي يدعو إليه الإسلام مشروط في غاياته وموضوعاته وأساليبه بأن لا يكون تبادلاً أو مشاركة فيما يُناقض عقيدة الإسلام أو شريعته قال تعالى : (ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم) البقرة/١٠٩ .

ويمنع التبادل الثقافي والمشاركة الثقافية- في الرؤية الإسلامية - مع أهل الثقافات الذين يقاتلون المسلمين ، أو يخرجوهم من ديارهم ، ومع من يظاهرون الآخرين على قتال المسلمين وإخراجهم من ديارهم قال تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) الممتحنة/٨-٩ (٧) .

وقد حث القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى وجوب اعمال العقل بمفردات مختلفة منها النظر ، والتدبر ، والإثبات بالبرهان ، والبيينة ، والمجادلة بالحسنى ، والحكمة ، والفقه ، منها قوله تعالى (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) محمد /٢٤ وقوله تعالى (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) البقرة /١١١ وقوله تعالى (وجادلهم بالتي هي أحسن) النحل /١٢٥ وقوله تعالى (ليهلك من هلك عن بينه ويحيى من حي عن بينة) الأنفال /٤٢ .

وينهى القرآن عن إتباع الظن: (إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً) النجم /٢٨ ، كما ينهى عن الاعتماد في الاعتقاد أو القول أو العمل على ما دون العلم: (ولا تقف ما ليس لك به علم) الإسراء /٣٦ .

ويدعو الإسلام إلى احترام ذوي العقائد الدينية الأخرى ويرفض القهر والإرهاب والإكراه لحمل الناس على الإيمان برأي أو فكر أو عقيدة، فقال تعالى: (ولو شاء لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) يونس/ ٩٩ وقال تعالى: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم). البقرة/ ٢٥٦. وبين القرآن الكريم طريقة الدعوة بجلاء وكان الرسول عليه الصلاة والسلام الداعية الأولى وتمثلها عليه الصلاة والسلام نهجاً وفعلاً، وهي طريقة تعتمد الحوار والتبليغ، قال تعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) المائدة/ ٦٧ وقوله تعالى: (فإنما عليك البلاغ) آل عمران/ ٢٠ وقوله تعالى: (قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة) يوسف/ ١٠٨. وقوله تعالى: (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) الأنعام/ ١٠٨. وقال تعالى: (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين). البقرة/ ١١١، وقال تعالى: (وإننا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) سبأ/ ٢٤.

ولنشر الدعوة، قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم (لقد هممت أن أبعث إلى الأمم رجالاً يدعونهم إلى الإسلام ويرغبونهم في الدين فأبعث فلاناً وفلاناً) (٨).

وللرسول صلى الله عليه وسلم في حلقات تعليمه أسلوب إنساني راقٍ: يقرئ أصحابه القرآن كما نزل موضحاً أحكامه ومفسراً ما غمض من معانيه، ويرشدهم بآداب الإسلام، ويتخولهم الموعظة بعد الموعظة، ويبين لهم عملياً كيف تكون العبادة: في الصلاة يقول: (صلوا كما رأيتموني أصلي) وفي الحج يقول: (خذوا عني مناسككم).^(٩) لم يُعنف أحداً في تعليمه، فالمعلم (خير من المُعنف) كما يقول، ولم يضق صدره لأحد، يأتيه الأعرابي بكل خشونة البداوة ويقول يا رسول الله: إني أعرابي جافٍ فعلمني، فيعلمه صلى الله عليه وسلم بكل رفق^(١٠) لذلك أثنى عليه ربه بقوله تعالى: (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) آل عمران/ ١٥٩.

إذن لم يكن العنف في يوم من الأيام طبيعة متأصلة في هذا الدين، ولا وسيلة من وسائل دعوته، وتاريخ ما يُعرف بالعنف في الإسلام أن يقرأ في سياقاته التاريخية، وأهم سياق يجب أن يقرأ فيه، هو الفترة النبوية التي كان فيها القرار الإسلامي يشكل الموقف الإسلامي الشرعي...

ووقتئذٍ لم يكن العنف إلا مُقدساً، أي دفاعاً عن الحقوق المغتصبة وحماية الدولة من غزو الأجنبي وتسلط القوى على دعوة الإسلام. نقول هذا ونحن لسنا من المنكرين لما يجب أن يكون عليه الإسلام، وهو في اندفاعه نحو بناء كيانه وانتزاع حقوقه فهنا له مساحة حددها الإسلام وبقدر معين من الموضوعية لممارسة الجهاد في أبعاده المختلفة دون أن يختزل الجهاد في أعمال العنف التي كثيراً ما كانت ذات أسباب غير خالصة، وكما أن الجهاد يكون بالسيف والرمح والقتال، فهو كذلك يكون بالكلمة، وقد تكون الكلمة أفضل وأجدى، ولأن كان الجهاد بالسيف يكون في محيط

الأعداء فقط ، فالجهاد بالكلمة يكون للأعداء وللأصدقاء في الداخل والخارج ، بل يكون في كل وقت ومكان ولكل جنس ، يكون للكفار ، ويكون للمنافقين بالحجة والبرهان ، قال تعالى (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين) التوبة/٧٣ ، وقال تعالى (وجاهدكم به جهاداً كبيراً) الفرقان/٥٢ وفي الحديث : (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وأسننكم) (١١) . ويكون للنفوس بالمنطق والبيان (١٢).

ولعل كل العقلاء من هذه الأمة يدركون ان اعمال السيوف على رقاب بعضهم البعض ، عمل لا يليق بسمعة هذا الدين ولا يتناغم مع تطلعاته التي جاءت أساساً للقضاء على كل أشكال العنف . إن مسحة سريعة للنصوص القرآنية والسيرة النبوية ، تظهر لنا الاعتدالية الوسطية المعقولة في منهج الحوار . فإله عز وجل يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدخل المشركين في نقاش حر وجاد حتى في أقدس المقدسات ويأمره أن يعلن استعدادة لقبول أي نتيجة يصل إليها النقد والحوار إذا كانت حقيقة ... (قل إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أول العابدين) الزخرف/٨١

وهكذا أدرك الصحابة الفرق بين الاحترام والتقدير في شخص النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يسكتوا عن واحدة في نفوسهم بل ناقشوا واستفسروا أحب الناس إليهم وأقدسهم ، ولم يكن أحد منهم يستشعر في حوار انتقاصاً من شخصه صلى الله عليه وسلم ، بل يرى أنه فريضة ولم يكن في الوقت نفسه من يرى أن الاحترام يتنافى مع الحوار والمناقشة – ولعل أجلى الصور التي توضح هذه الحقيقة موقف الحباب بن المنذر مع النبي صلى الله عليه وسلم في بدر (عندما نزل النبي صلى الله عليه وسلم أدنى ماء من بدر فقال له الحباب بن المنذر : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو أن نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فقال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة . فقال : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل ... فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ...) (١٣) .

لقد اشتبه عليه الأمر بين المقدس وغيره ، فاستفسر عنه ولم يكن لينتقد وحيماً لأنه يعلم أن في ذلك سرّاً وأمرّاً مراداً في علم الله ، وهو على إيمانه بتأييد الله عز وجل لرسوله ، وإلا لو لم يكن مقتنعاً بما في الوحي من تدبير حكيم لا اعتراض ، فلما تبين له أن الوحي لم يفرض نفسه هنا مارس الحوار لرأي النبي صلى الله عليه وسلم بحرية ووعي .

وهكذا نجد النبي صلى الله عليه وسلم يحاور الآخرين وينتهي الحوار في حالة ، ويفتحه في حالة أخرى ، ولعل قمة المنهج الموضوعي القرآني في الحوار هي ما جاء في قوله تعالى (وإننا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلالٍ مبين) سبأ/٢٤

ثانياً : الحوار الإسلامي – الإسلامي ، وماذا نريد منه :

إننا في هذا الوقت اشد الحاجة إلى توحيد الصفوف وجمع الكلمة وذلك لا يتم إلا من خلال تلاقي العلماء والمفكرين والموجهين الذين يرشدون هذه الأمة إلى الغايات الكبرى والأهداف السامية، وما ينبغي أن تكون عليه هذه الأمة في هذا الظرف العصيب ، حيث تواجه تحديات متعددة الأشكال مختلفة الأهداف ، بعيدة التصورات ، وكل ذلك يعود على الأمة بألوان متعددة من الوقوع في الأزمات والانحطاط في مستواها لمواجهة هذه التحديات .

إن مجرد فتح ملف الحوار الإسلامي – الإسلامي يشير بشكل أو بآخر إلى التحديات التي تقف في طريقه على الرغم من كونه مُسلمة فكرية نظرية تقوم على أرضية كم هائل من النصوص القرآنية والإسلامية، بالإضافة إلى أن إيجاده يعد مسلمة عقلية وحاجة ظرفية وثابتة لا معنى للإنسانية بدونها فالحوار أمر مهم من الناحية العملية ، ومن الناحية الحضارية ، بل هو ضرورة ملحة للوصول إلى موقف محدد وموحد أمام هذه المشكلات التي نعانيها .

وقد عُرف عن العلماء قديماً وحديثاً ألوان مختلفة من الحوار ، فإذا ما صدقت العزيمة وتحقق الإخلاص وتجرد الإنسان عن العصبية التي توارثها من الماضي ، وأراد أن يصل بأتمته للمستوى الإنساني الرفيع واثبات ذاتية الأمة ووجودها الحضاري بالمعنى السليم حينئذٍ يمكن أن يكون للحوار تأثيره وتحقيق الغاية المرجوة منه .

فالعلماء في الماضي كانوا يجرون ألواناً من الحوار ، سواء في ميدان الكتابة أو ميدان الجدل والمناظرة ، أو في مجال المطارحات الكلامية في حلقات الدروس بين الأساتذة والتلاميذ ، وأحياناً يأتي بوجهات نظر الآخرين ويذكر أدلتهم وقد تكون هذه الأدلة هي كل الأدلة المطلوبة وقد يكون بعضها هو المطلوب، لكن أمانة العالم تقتضي أن يُحيط بكل وجهات النظر والأدلة التي يعتمد عليها الآخرون ، ثم يتصدى بعد ذلك للرد عليها وتقنيدها وإيجاد فكر معين لمواجهة هذه المشكلات .

إن فتح باب الحوار يعني تهيئة الأرضية الواقعية والنظرية للشروع في معرفة الذات والآخر ، من أجل نقد موضوعي يقف عند الخطأ ويثمن الصواب ، وينتصر للحقيقة ، ويشجع بالتالي على إيجاد سبل التفاهم الاجتماعي من أجل مسيرة هذه الأمة التي مازالت تتخبط في وحل التخلف الحضاري . فلم يعد الحوار اختياراً يمكن التفكير فيه أو نتباطاً في اتخاذ الخطوات تجاهه . بل أصبح ضرورة ملحة ، لأن الصراع بوتيرته الحالية وحجمه يتجه بقطار التنمية والنهوض نحو الكارثة التي تجرف الكل دون استثناء .

ومن هنا ، تبدو أهمية الحوار داخل الحالة الإسلامية اليوم ، وهو حوار تقوم فلسفته على إعادة بناء العقل الإسلامي من جديد ، لدفعه نحو الآخر ، بعد أن تربي ولفترات طويلة عبر أدبيات الحركة الإسلامية ، على القطيعة مع الآخر والانكفاء على الذات . ولا شك أن هذا الاندفاع تجاه

الآخر يهدف إلى تكوين ذهنية جديدة تعطي للآخر الشرعية الكاملة في المماثلة والتعبير عن الذات والفكرة . وهذه القاعدة قد يتفرع عنها ضوابط وحدود تضمن للحوار الاستمرار والإيجابية وهما مطلبان استراتيجيان .

ثالثاً: كيف نفهم الاختلاف وضرورة الحوار لمواجهة التحديات :

يجب أن يعلم الذين يريدون جمع الناس على رأي واحد في أحكام العبادات والمعاملات ونحوها من فروع الدين ، إنهم يريدون ما لا يمكن وقوعه ، ومحاولتهم رفع الخلاف لا تُثمر إلا بتوسيع دائرة الخلاف ، وهي محاولات تدل على سذاجة بينة، ذلك أن الاختلاف في فهم الأحكام الشرعية غير الأساسية ضرورة لا بد منها . وإنما أوجبت هذه الضرورة طبيعة الدين، وطبيعة اللغة، وطبيعة البشر، وطبيعة الكون والحياة (١٤). ولهذا اجتهد الصحابة واختلفوا في أمور جزئية كثيرة، ولم يضيّقوا ذرعاً بذلك. بل نجد خليفة راشداً من أئمة الهدى - وهو عمر بن عبد العزيز - يرى بما أوتي من علم وبصيرة ، في اختلاف الصحابة سعة ورحمة فيقول : ما يسرني أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يختلفوا ، لأنهم لو لم يختلفوا لم يكن لنا رخصة (١٥).

وروى ابن عبد البر النمري بسنده إلى يحيى بن سعيد قال : ما برح أولو الفتوى يفتون ، فيحل هذا ، ويحرم هذا ، فلا يرى المحرم أن المحل هلك لتحليله ، ولا يرى المحل أن المحرم هلك لتحريمه (١٦). بل أقول أن الخلاف وجد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فأقره ولم ينكره كما في قضية صلاة العصر في بني قريظة ، وهي مشهورة وفي غيرها من القضايا .

وقد ذكر لنا القرآن الكريم أن الملائكة قد اختلفوا بل اختلفوا بينهم وذلك بقوله تعالى (ما

كان لي من علم بالملا الأعلى اذ يختصمون) ص/٦٩

وأن الأنبياء قد اختلفوا فيما بينهم ، فقد اختلف داود وابنه سليمان عليهما السلام في حكم الغنم إذ نفشت في زرع القوم ، وأشار القرآن الكريم إلى أن الصواب كان مع الابن ، ولكنه أثنى على الاثنين جميعاً فقال (ففهمناها سليمان ، وكلا أتينا حكماً وعلماً) الانبياء/٧٩

واختلف موسى والخضر عليهما السلام في مواقف ثلاثة انتهت بافتراقهما ، (قال هذا فراق

بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) الكهف / ٧٨ .

وثبت في الحديث أيضاً اختلاف داود وسليمان في شأن المرأتين اللتين اختلفتا في طفل تدعي كل منهما أنه أبناها ، وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة (كانت امرأتان معهما أبناهما ، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت صاحبتها : إنما ذهب بابنك وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك . فتحاكما إلى داود ففضى به للكبرى فخرجتا على سليمان ابن داود فأخبرته ، فقال : ائتوني بالسكين أشقه بينكما ، فقالت الصغرى : لا تفعل يرحمك الله هو ابنها ، ففضى به للصغرى) (١٧).

وإذا كان الاختلاف والاختصاص قد وقع بين أكرم الخلق على الله تعالى من الملائكة الكرام والأنبياء العظام ، لاختلاف زوايا الرؤية ، ووجهات النظر ، واتساع العلم وضيقه ، فكيف نطمع أن نمحو الخلاف بين غيرهم ممن لا عصمة لهم وليس فيهم ملك مقرب ولا نبي مكرم ؟
ولهذا كان بعض العلماء يقول إجماعهم حجة قاطعة، واختلافهم رحمة واسعة. وكان عمر بن عبد العزيز يقول : ما يسرني أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يختلفوا ، لأنهم إذا اجتمعوا على قول فخالفهم رجل كان ضالاً وإذا اختلفوا فأخذ رجل بقول هذا ، ورجل بقول هذا كان في الأمر سعة (١٨).

وبعد أن عرفنا وفهمنا أن الاختلاف في الفروع ضرورة من ناحية ، ورحمة من ناحية أخرى عرفنا أيضاً أن الاختلاف ثروة ، تنتسج به الثروة الفقهية التشريعية ، وبالتالي يصبح تعدد المشارب وتنوع المسالك في الحركة الاجتهادية الإسلامية ، كنوز لا يقدر قدرها ، وثروة لا يعرف قيمتها الا أهل العلم والبحث عن الحق والحقيقة . ولذلك **فلا بد للحوار من أسس ومبادئ أخلاقية ومنهجية أوجزها بما يأتي:**

- ١- الإخلاص لله وحده، والتجرد للحق، ومجاهدة النفس حتى تتحرر من إتباع هواها أو أهواء غيرها. لأن إتباع الهوى لون من الشرك ولهذا قال السلف : شر إله عبد في الأرض الهوى ، وذلك لأنه يضل الإنسان عن الحق رغم علمه به (افرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) . الجاثية/٢٣
- ٢- التحرر من التعصب للأشخاص و المذاهب والطوائف ، فلا تسبغ الشرعية الملزمة على مواقف التشخيص وعلى التصرفات الشخصية ، وإجبار الآخرين على تبنيها دون أي سند شرعي ملزم واتهام الآخرين الذين لا ينقادون لهذا الرأي بالمروق عن الرأي الشرعي لأن التفكير غير المنطقي قد أدى الى مانراه اليوم من تفرق وتمزق وحقد وكرامية بين الأمة الواحدة فكل جماعة أو فئة أو طائفة أو مذهب تعتبر نفسها أنها على الحق وأنها الفرقة الناجية وانها تملك الحقيقة المطلقة ، أما الآخرون فهم في ضلال وعلى باطل ومصيرهم إلى النار . وإذا كان التعصب يؤدي إلى الانغلاق والانطواء على الذات وعدم رؤية الغير ، فإن الحوار يعني انفتاح كل طرف على الطرف الآخر ، والتعرف على القواسم المشتركة بين المسلمين ، وأن مما يجمعهم كمسلمين أكثر مما يختلفون فيه .
- ٣- أن يكون المحاور أو المناظر عالماً أو صاحب رأي، عنده القدرة على معرفة الدليل والنظر في الأدلة المختلفة واستخلاص الحكم منها ومعرفة وجه الحق منها. لقوله تعالى (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطون منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمة لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً) النساء/٨٣ ولذلك يجب أن لا نشرك في الحوار أنصاف العلماء لأنهم يخربون أكثر مما

يعمرون ويفرقون ولا يجمعون ، وهم يحملون أفكاراً معينة ويريدون فرضها على الفريق الآخر ، لأنهم يحفظون بعض الحجج والأدلة وليس لهم فهماً شمولياً بالإسلام ومنهجه . (١٩).

٤- أن لا يفكر كل طرف مسبقاً في الانتصار على الطرف الآخر ، والنتيجة انهزام الطرفين ، لأن كل طرف لن يرضى لنفسه بانتصار الطرف الآخر عليه ، بينما منطلق القرآن الحكيم في الحوار (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) سبأ/٢٤ . فاستيعاب هذه الآية يساهم في إعادة تشكيل العقل المسلم حيث تجذبه للحوار وبمنهجية موضوعية متوازنة توحى للطرف الآخر بضرورة تقصي الحق وقصد الحقيقة ، فما نريده من الحوار هو أن نعرف أين نخلف وأين نتفق ، ونؤسس الاختلاف أو الخلاف على أسس علمية محكمة ونجردها من التعصبات ونحررها من التزييف التاريخي والكلامي والسياسي والاجتماعي ونؤسس الاتفاق على قاعدة علمية رصينة وثابتة . وعن هذه المنهجية يقول السيد مرتضى العسكري : (لن يتحقق أي تقارب أو تفاهم بين المسلمين دون تدارس الخلاف والبحث عن منشئها ثم المبادرة إلى علاجها) (٢٠).

٥- تقيد كل المتناظرين والمتحاورين بالقول الحسن ، وترك الطعن والتجريح أو السخرية والازدراء والاحتقار لوجهة النظر التي يعرضها مناظره ومحاوره ، وذلك لأنه قد يكون مصيباً وأنت المخطيء ، إذ لا يقين في الاجتهادات بصواب احد القولين ، وكل ما تملك في هذا المجال هو الترجيح ، والترجيح لا يعني القطع أو اليقين . وهذا هو نهج السلف في اختلافهم في الاجتهاد ، فلم يجرح بعضهم بعضاً ، بل أثنى بعضهم على بعض برغم ما اختلفوا فيه . وهكذا قام التعاطي بين أهل الفقه على الاجتهاد المعترف بأحكام الخطأ ، فإن اختلفوا قالوا بالاجتهاد والخطأ ولم يقولوا بالطعن والتجريح والتكفير ، لأن صاحب النهج التكفييري يمتطي حصان الحرب الضروس ويمتشق سيف التكفير ، ويقوم بتسليطه على رقاب خصومه من العباد ، فإما معنا وإما علينا ، ولا حل وسط ولا دعوة للحوار والنقاش للمعطيات الموضوعية ، بل تقريع وتقريع مضاد^(٢١) . وإن من المؤسف اليوم أن نجد بين المشتغلين بالدعوة إلى الإسلام من يشهر سيف الذم والتجريح لكل من يخالفه متهماً إياه بقلّة الدين ، أو باتباع الهوى أو بالابتداع والانحراف أو بالنفاق ، وربما بالكفر وكثير من هؤلاء لا يقتصرون في الحكم على الظواهر ، بل يتهمون النيات والسرائر التي لا يعلم حقيقة ما فيها إلا الله سبحانه وتعالى ، كأنما شقوا عن قلوب العباد واطلعوا على دخالها (٢٢) . ولعل من أفضل واحسن أمثلة أدب الاختلاف : تلك الرسالة العلمية الرائعة التي بعث بها فقيه مصر وإمامها وعالمها الليث بن سعد إلى الإمام مالك ، يعرض فيها وجهة نظره في أدب جم رفيع ، حول كثير مما كان يذهب إليه الامام مالك ويخالفه فيه الليث بن سعد ، ونظراً لطول الرسالة نقتطف منها ما يشير إلى ذلك الأدب الجم الرفيع ، الذي اختلف في ظله سلف هذه الأمة وكرام علمائها (٢٣) . يقول الليث بن سعد : (.. سلام عليك ، فإني احمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد عافانا الله وإياك

، وأحسن لنا العاقبة في الدنيا والآخرة ، قد بلغني كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذي يسرني ، فأدام الله ذلك لكم وأتمه بالعون على شكره ، والزيادة من إحسانه) ثم يذكر من أمثلة الاختلاف بينه وبين الامام مالك قضايا عديدة منها الجمع ليلة المطر ، والقضاء بشاهد ويمين ، ومؤخر الصداق لا يقبض إلا عند الفراق ، وتقديم الصلاة على الخطبة في الاستسقاء ... وقضايا خلافية أخرى ، ثم قال في نهاية الرسالة : (وقد تركت أشياء كثيرة من أشباه هذا - وأنا أحب توفيق الله إياك ، وطول بقائك ، لما أرجو للناس في ذلك من منفعة ، وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك ، مع استثناسي بمكانك وإن نأت الدار فهذه منزلتك عندي ، ورأيي فيك ، فأستيقنه ، ولا تترك الكتاب إلي بخبرك وحالك وحال ولدك واهلك ، وحاجة إن كانت لك ، أو لأحد يوصل بك ، فإنني أسر بذلك ، كتبت إليك ونحن صالحون معافون والحمد لله ، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا ، وتمام ما انعم به علينا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته) (٢٤).

٦- إن الشعور بالحاجة إلى الحوار ينبغي أن لا يكون وليد ردات فعل عاطفية ومحاولة إسكات الناس عن التنديد والتذمر تجاه الانشقاقات والخلافات بين المسلمين ، وإنما تنبني الحاجة إلى هذا الحوار على القناعة التامة بإيجابية هذه الأداة وضرورتها في بلورة الرأي الصحيح .

٧- ضرورة أن يخرج الحوار من إشكاليات الماضي ورواسب الواقع إلى تجديد خطاب فكري ثقافي حضاري للوحدة الإسلامية يتأسس على المعطيات الجديدة في الوضع الإسلامي ، والتحويلات العالمية الكبرى ، وعلى قراءة جديدة وواعية للمستقبل وحساباته الشاملة . فخطاب الوحدة الإسلامية ينبغي أن يتجدد ويصاغ بعقلية معرفية جديدة ، يشترك في تأسيسه وصياغته كل الفرقاء وعبر منهجية الحوار ... وهكذا كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم لا يضيعون الوقت والجهد إلا فيما يعود على الإسلام والمسلمين بالخير وكانوا يبتعدون عن الجدليات التي لا تأتي بخير (٢٥)

٨- الحوار بالتي هي أحسن : فإن من الدعائم الأساسية في أدب الاختلاف الحوار بالحسنى ، وإذا استخدمنا التعبير القرآني قلنا الجدل بالتي هي أحسن ، وهو ما أمر الله به في كتابه بقوله تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) النحل/١٢٥ وسر ذلك : أن الموعظة ترجع - عادة - إلى الموافقين الملتزمين بالمبدأ والفكرة فهم لا يحتاجون إلا إلى موعظة تذكرهم ، وترقق قلوبهم وتجلوا صدأهم وتقوي عزائمهم ، في حين يوجه الجدل عادة إلى المخالفين الذين قد يدفع الخلاف معهم إلى شيء من القسوة في التعبير ، أو الخشونة في التعامل أو العنف في الجدل ، فكان من الحكمة أن يطلب القرآن اتخاذ أحسن الطرائق وأمثلها للجدال أو الحوار ، حتى يؤتي أكله . ومن هذه الطرائق أو الأساليب أن يختار المجادل أرق التعبيرات وألطفها في مخاطبة الطرف الآخر ، ولهذا استخدم القرآن في مخاطبة اليهود والنصارى ، تعبيراً له يحاؤه ودلالته في

التقريب بينهم وبين المسلمين ، وهو تعبير (أهل الكتاب) أو (الذين أتوا الكتاب) ولهذا جاء في القرآن الكريم قوله تعالى (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم) النساء/١٧١ وقوله تعالى (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) آل عمران/٦٤ وقوله تعالى (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير) المائدة/١٥ . حتى المشركون الوثنيون لم يخاطبهم القرآن الكريم بقوله (يا أيها المشركون) بل كان يناديهم بقوله (يا أيها الناس) . وإنما اصطدم الإسلام بالشرك ، واقتتل المسلمون والمشركون لأنهم لم يقابلوه بمثل منطقهم ، بل قالوا : لنا ديننا ، وليس لك دينك ، ولنا عملنا ، وليس لك عملك ، من حقنا أن نعبد الأوثان وندعو إليها وليس من حقك أن تعبد الله وتدعو إليه ، ومن اتبعك على دينك بإرادته واختياره كان علينا أن نفتنه عن دينه .

ومن أساليب الحوار بالحسنى: التركيز على نقاط الالتقاء ومواضع الاتفاق بينك وبين من تحاوره. وهو أسلوب قرآني يجب ان نتعرف عليه، فهو يقول في حوار أهل الكتاب من اليهود والنصارى (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن) وقوله (أمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون) العنكبوت/٤٦ و قال تعالى في سورة أخرى (قل أتحتاجوننا في الله وهو ربنا وربكم) البقرة/١٣٩ . فإذا كان هذا موقف المسلم ممن يجادله من أهل الكتاب الذين يخالفونه في عقيدته ، وأصل دينه ولا يؤمنون بان محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أن القرآن كتاب الله ، ولا أن الإسلام شريعة الله فكيف ينبغي أن يكون من أخيه المسلم الذي يؤمن بكل ما يؤمن به من عقيدة وشريعة ورسول وكتاب . ومجادلات الرسل مع أقوامهم، كما حكاها القرآن الكريم، تحمل معنى الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن، حوار فيه الرفق والتلطف واستخدام ألين العبارات في الدعوة والحوار. وهذا ما يحسن بالدعاة والمفكرين المسلمين أن يحرصوا عليه ويدققوا فيه لأن الكلمة العنيفة لا لزوم لها ولا ثمرة تجتني من ورائها ، ولأن الحوار الذي يصحبه العنف والإكراه والاتهام ، فالأغلب انه يفسد الود ، ويعكر صفاء الأنفس بل قد يخشى إذا ذهب الود أن لا يعود مرة أخرى ولذلك فإن حسن اختيار الجمل والعبارات المناسبة في بعض الأحيان يحل مشكلات ويفض اشتباكات . كيف والتوجهات النبوية تأمر بالتبشير وتنتهي عن التنفير، ففي الحديث المتفق عليه عن انس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: (يَسْرُوا ولا تَعَسَّرُوا وبشروا ولا تنفروا). ولا شك أن الجدل بالتي هي أحسن هو من سمات المؤمنين وهو من سمات حملة الهداية ، فالمسلم كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (ليس المسلم بالطعان ولا باللعان ولا بالفاحش ولا البذيء)(٢٦).

٩- التركيز على الشباب في تثبيت قيم الحوار لديهم والتحرك معهم في كل المراكز الإسلامية، وتوعية أصحاب الوعي الجاهل، ونقصد بهم الذين يعانون من الجهل المركب. فإن الاعتماد على الشباب هو تنفيذ لوصايا الرسول صلى الله عليه وسلم الذي قال: عليكم بالشباب فإنهم أرق أفئدة، وقال

فيهم: الشباب لهم حدة في أذهانهم.(٢٧) . وبناء على ما تقدم: فإننا إذا سمونا لمستوى الحوار فحينئذ يكون للحوار أهميته، وندرك فوائده ونحقق إبعاده على المستقبل البعيد. ورغم كل ذلك فالحوار نعمة ربانية أقره سبحانه وتعالى في كتابه الكريم فسجل نماذج من روائع الحوار ، بين الكافر والمؤمن ، بين الرسول وقومه بل أن هناك حواراً بين الله سبحانه وتعالى وبين عبده النبي عيسى عليه السلام . والحوار هو ركيزة لتجديد الفكر وصقل الرأي للوصول إلى القناعة السليمة تجاه مستجدات القضايا المتسارعة ، وهو خطوة نحو التوازن بين الحاجات المتعددة . لان الحوار يؤكد على التعددية في الرأي والمشورة ، ويرفض العنف والديكتاتورية ، ويؤكد على الإخوة والصدقة الفكرية بدلاً من العداوة والبغضاء ، والمشروع الإسلامي دعوة للتعددية الحضارية . وكل عقلاء هذه الأمة يدركون ضرورة وأهمية الحوار الإسلامي - الإسلامي والحوار الإسلامي مع الآخر وفوائده على مستقبل الأمة لأن التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية واحدة ، لا تفرق بين قطر وآخر ، ولا بين مذهب وآخر ولا بين طائفة أخرى ولا بين جماعة أخرى ... بل إن المستهدف في النهاية هي الأمة الإسلامية بجميع مذاهبها وثقافتها وطوائفها وثوراتها .

وهذا العصر الذي يمتاز بالتكتلات الاقتصادية العملاقة ، وبالوسائل الإعلامية الضخمة وبالقوى السياسية المتماسكة ، لا يمكن أن تحترم إلا الأمة القوية المتماسكة الصلبة ، أما الأمة المتفتتة والمتاحرة والمنتازعة فستكون فريسة سهلة لكل طامع وحاسد ومتربص . ومن منطلق الوعي بكل هذه التحديات الهائلة المختلفة التي تواجه الأمة الإسلامية ... من منطلق هذا الإحساس بالخطر والتحدي ، تبدو الدعوة للحوار والجلوس على مائدة النقاش العلمي والفكري الهادئ ، بعيداً عن روح التعصب والأنانية امراً ملحاً ، وضرورة لا يمكن تجاهلها . والسلم الاجتماعي لا يمكن أن يتحقق إلا في ظل مناخ التسامح الفكري والثقافي ، واحترام التعددية ، وضمان حقوق الإنسان وسيادة العدالة والقانون والانفتاح على كل الشرائع والتحاور معها في كل ما يخدم المجتمع .

وقد تقدم المسلمون حضارياً في العهد الإسلامي الأول وفيما بعده ، ذلك لأنهم كانوا يتغلبون على مشاكلهم واختلافاتهم بالحوار ، ولم تكن الاختلافات التي حدثت بين المسلمين من قديم الزمان لتحول دون التعاون والتشاور والتحاور فيما يرتبط بقضايا المسلمين الكبرى . فالحوار بين أبناء الأمة سيكون أحد المقدمات الرئيسية لتجاوز ظاهرة التفرق والتمزق والتشردم الذي نعيشه اليوم .

وإذا كان الإنسان المعاصر يبحث عن رسالة الخلاص وإذا كنا نعتقد أن الإسلام هو الرسالة المنقذة التي تنتظرها الإنسانية فإن هذه الرسالة لا يمكن أن تقدم مجزأة متصارعة مع نفسها ، كما لا يصح أن تعرض متخلفة عن فهم حاجات الإنسان المعاصرة . وإذا كان هنالك تشتت وتخلف فهو ليس من جوهر الرسالة وإنما من موقف الأفراد الذين يحملونها. لذلك فإن المسلمين بحاجة ماسة

إلى هذا الحوار الداخلي وبحاجة أيضا إلى حوار آخر مع أهل الكتاب للوصول إلى الكلمة السواء التي دعا إليها القرآن الكريم ، و بحاجة إلى حوار إنساني شامل تتطلبه واجبات الدعوة إلى الإسلام . وهكذا فإن إدراك تحولات العالم وتطوراته لا يكفي للانخراط الفعال في شؤون العصر وقضاياه المصيرية . وإنما ينبغي أن يرافق هذا الإدراك والاستيعاب، تجديد رؤيتنا وفهمنا للإسلام، لأن تجديد رؤيتنا إلى الإسلام. هو سبيلنا لتجاوز حالة الشعور بالعجز وانعدام القدرة أمام التحولات الهائلة التي تجري في العالم على مختلف الصُّعد والمستويات ... فالمعركة الحضارية في الفضاء العربي والإسلامي لن تكتسب إلا بالإسلام والتجديد والنهضة الشاملة .

ومع ذلك يبقى الخطاب الإسلامي اليوم هو أكثر نضجاً وإدراكاً لحاجاته الحقيقية، وأكثر تفهماً للواقع الإسلامي والعالمي ، وعنده من المرونة ما تجعله على استعداد لتقبل التجديد والتطوير . وهكذا في رؤيته للغرب التي نلمس فيها تطورا وتحسناً وتأكيدا على الحوار والتعايش والتعاون كخيارات بديلة عن القطيعة والصدام والمواجهة ، وقراءة هذه العلاقة انطلاقاً من رؤية معرفية والعمل على تحسين صورة الإسلام في المجتمعات الغربية ورفع ما علق على هذه الصورة من تشويه، مع السعي إلى بلورة خطاب إسلامي خاص بتلك المجتمعات وهذا ما أكدت عليه الندوات والمؤتمرات الإسلامية الجديدة .

ولفقهاء الإسلام ودعاته في كل عصر وزمان ان يعيدوا النظر في أقوالهم ويجتهدوا بالذي ينسجم مع عصرهم ، ومستوى تفكير الحضارة في زمانهم ، منطلقين من الأصول نفسها التي تقيد بها الأولون (٢٨) .

الهوامش والمصادر :

- ١ . المجيدي:د عبد السلام مقبل:لاإنكار في مسائل الخلاف .كتاب الأمة، العدد ٩٤ ، ط١، قطر ٢٠٠٣م.
- ٢ . الجوهري : الصحاح، مادة (الحوار)، ٥٥٤/٢، ط١، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٩٩٩م.
- ٣ . القديدي : د احمد: الإسلام وصراع الحضارات، كتاب الأمة(٤٤) ط١، قطر ١٩٩٥ ص ٢٧ .
- ٤ . فضل الله : محمد حسين:الحوار في القرآن،الدار الاسلامية ، بيروت، ص ب ، وينظر فضل الله : مستقبل الحوار الإسلامي _ الإسلامي من اجل بناء مستقبلنا المشترك، ط١، مطبعة الفلاح ، بيروت ٢٠٠٤ ص ٩ ومابعدها .
- ٥ . محفوظ:محمد: الفكر الإسلامي المعاصر ورهانات المستقبل ، ط١ ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ١٩٩٩م ، ص ٢٢ ومابعدها بتصرف .
- ٦ . عصفور:جابر :هوامش على دفتر التنوير، المركز الثقافي ، بيروت ، ١٩٩٤م ، ص ٢٦٥

٧. عبد الحلیم : احمد المهدي: السمات المنشودة في الخطاب التربوي الإسلامي ،مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ،العدد (٢٩) ، ٢٠٠٢م ، ص ٨٠-٨٣
٨. الدينوري : ابن قتيبة :الإمامة والسياسة، ط٢ ، طبعة البابي الحلبي، ١٩٥٧. ج١/٢ .
٩. موسوعة السنة، الكتب الستة وشروحها، إعداد بدر الدين جتین آر، ط٢ ، دار الدعوة ، تونس، ١٩٩٢ ، سنن النسائي ٢٦٩/٥ ، حديث رقم ٣٠٦٠ .
١٠. النصري : الحافظ عبد الرحمن بن صفوان :تأريخ أبي زرعة الدمشقي ،تحقيق شكر الله ، د.ت.ج١/٣١٢ .
١١. انظر الجامع الصغير ، رواه احمد وأبو داود .
١٢. الواعي : د. توفيق :الدعوة الى الله ، ط١ ، مكتبة الفلاح ، الكويت ١٩٨٦ ، ص ٥٣ .
١٣. ابن هشام : تهذيب سيرة ابن هشام:مؤسسة الرسالة ، بيروت ، د.ت. ص ١٤٣ .
١٤. القرضاوي : د. يوسف :الصحة الاسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم ، ط٤ ،مؤسسة الرسالة ، بيروت، ١٩٩٥ ، ص ٤١ .
١٥. ابن عبد البر :جامع بيان العلم ، ط المنيرية ٨٠/١ .
١٦. المصدر السابق ، ٨٠/١ .
١٧. متفق عليه ،ينظر اللؤلؤ والمرجان ، حديث ١١٢١ ،ورواه البخاري في كتاب الانبياء ، ومسلم في كتاب الاقضية .
١٨. امزيد من التفصيل ينظر ابن عبد البر : جامع بيان العلم ٨٠/١ ، والشاطبي :الاعتصام ، تعليق السيد رشيد رضا، ١٦٨/٢-١٧١ . وينظر الدهلوي : حجة الله البالغة ، تحقيق سيد سابق ، مطبعة الاستقلال الكبرى، مصر ، د.ت. ١٤٥/١ .
١٩. ينظر الواعي : مصدر سابق ص ٣٠٠ وينظر د. محمد خليفة حسن :الحوار بين الاديان، مركز زايد للتنسيق والمتابعة ، الامارات ٢٠٠٣ ، ص ٥٨. وينظر د. محسن عبد الحميد: المنهج الشمولي في فهم الاسلام ، ط١ ، دار احسان، ١٩٩٥ ، ص ٣٧ وما بعدها .
٢٠. العسكري : السيد مرتضى:معالم المدرستين،بحوث ممهدة لتوحيد كلمة المسلمين،مؤسسة البعثة ، طهران ٢٣/١ .
٢١. ينظر الواعي، مصدر سابق ص ٣٠٤ ، وينظر محفوظ ، مصدر سابق ص ٢٢٩-٢٣٠ .
٢٢. القرضاوي مصدر سابق ص ١٣٧-١٣٩ بتصرف .
٢٣. العلواني : د.طه جابر ، نقلا عن كتاب (ادب الاختلاف في الاسلام) كتاب الامة رقم (٩) ص ١٢٠-١٢٢ .

٢٤. ابن القيم الجوزية: اعلام الموقعين ، مطبعة الكليات الازهرية ٣، ١٩٦٨/١٨٣-٨٨، وينظر مدارج السالكين ، دار السنة المحمدية، ١/١٩٦-١٩٨ .

٢٥. الواعي : مصدر سابق، ص. ٣٠١.

٢٦. رواه الترمذي ، وقال حديث حسن برقم ١٩٧٥، واحمد ٣/١٦٥، ٢٤١، وابن ماجه برقم (٤١٨٥)

٢٧. للمزيد ينظر القرضاوي : مصدر سابق ص ١٤٦ ومابعدھا، وينظر القديدي : ص ٢٦ ومابعدھا.

٢٨. الزحيلي : د. وهبة : الاجتهاد في الشريعة الاسلامية، محاضرة قدمت الى مؤتمر الفقه الإسلامي العالمي ، الرياض، ١٣٩٦هـ، ص ٢٣-٢٤، وينظر العقاد: التفكير فريضة اسلامية، ط ٢، بيروت ١٩٧١، ص ١٣٣ .